هذه النسخة مخصصة لشركة هائل سعيد أنعم

www.edara.com

خلاصات
كتب المدير و رجل الأعمال

العدد 722

رئيس التحرير: نسيم الصمادي

editor@edara.com

نوفمبر / تشرين ثاني 2020 - ربيع ثاني 1442

السنة 28 - العدد 32

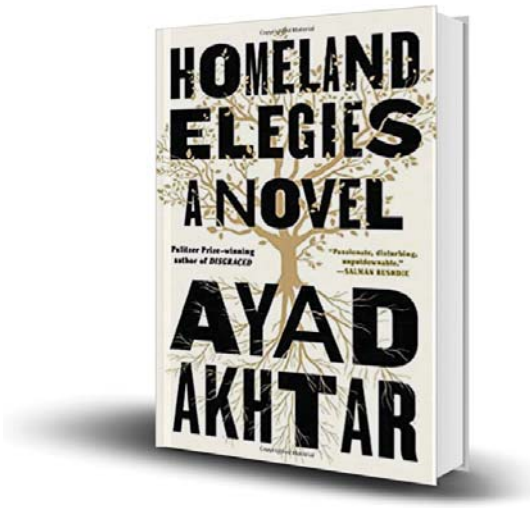

مراثي الوطن

رواية الباكستاني الأمريكي: إياد أخطر

العائلة السياسية

1- الذكرى السنوية الأولى لرئاسة "ترامب"

في أوائل تسعينيات القرن العشرين، التقى والدي بـ"دونالد ترامب". كلاهما كانا في منتصف الأربعينيات، يتنفسان الصعداء بعد نجاتهما من الدمار المالي الذي لحق بهما، حتى شارفا على الإفلاس.

كانت "مؤسسة ترامب"، التي أطلَقَ عليها اسمه، تنهار تحت وطأة الديون المتراكمة، وكانت امرأته حاملاً في شهورها الأولى، فيما كانت زوجتُه السابقة تُشوه سمعتَه أمامَ الرأي العام. لم يتفاجأ أحد عندما بدأ "ترامب" يُعاني من زيادة سرعة خفقان القلب. وذات صباح، انكفأ على وجهه فوق الرصيف. أشارت الأدلة إلى نوبة قلبية، ولكن الأطباء لم يجدوا أي شيء غير طبيعي في ثنايا صدره. ولكن في شرائط مخطط كهربية القلب، وجدوا نمطاً عَرَضياً غير معروف. ومن ثم عرفت الأخبار طريقها إلى والدي.

كان والدي طبيبَ قلب بارعاً. في عام 1983 حضر ندوةً في نهاية الأسبوع حول الاستثمار العقاري، وعلى الفور شرَع في تحويل أمواله إلى الاستثمار في العديد من العقارات، من محطات الوقود إلى المُجمعات التجارية والسكنية. ثم جاء انهيار السوق في عام 1987 الذي أجهز على ثروته فلم يبقَ منها شيءٌ ، لذلك عاد إلى وظيفته كأستاذ في الطب واستغرق في أبحاثه. وبعد مرور ثلاث سنوات، وجد نفسه متصدراً مجالَه، وحصلَ على جائزة عن دراساته عن حالة قلبية نادرة تُعرف باسم "متلازمة بروجادا".

وبصفته أحد الخبراء البارزين في هذا المرض، تم نقل والدي جواً إلى مستشفى "ماونتسايناي"، حيث كان من المقرر أن يلتقي بـ"ترامب"، الذي لم يظهر بدوره. في تلك الليلة، اتصل بوالدي ليعتذر. وفي صباح اليوم التالي، جاء في الوقت المحدد، وبرفقته فنجانين من القهوة، وصندوق هدايا صغير يحتوي على دبوس طية السترة مكتوب عليه عبارة "أَحب الحياة". كل ما تطلبه الأمر هو تلك الحُلى التي لا قيمة لها لكسب ولاء والدي.

ولمدة أربع سنوات، كان "ترامب" ينقل والدي إلى نيويورك كل ستة أشهر لإجراء فحص دوري، ولكن عندما تم التأكد أن متلازمة "بروجادا" مستحيلة، توقفت الزيارات، ولم يتصل مرة أخرى. فدخل والدي في حالة تشبه الحداد. مجرد ذكر اسم "ترامب" كان من شأنه أن يرسله إلى نوبة من الصمت المكفهر. تحت مزاعم حضور بعض المؤتمرات أو غيرها، كان يقوم برحلاته الخاصة إلى نيويورك، ويعاود زيارة الأماكن التي كان يمرح فيها برفقة "ترامب". اكتشفت لاحقاً أنه اعتاد أيضاً على استدعاء امرأة تُدعى "كارولين"، أوصى بها "ترامب" بنفسه. ويكفي أن نقول إن "ترامب" كان له تأثير دائم على والدي وقد امتد هذا التأثير ليشمل عائلتي برمتها.

لذلك عندما تم الإعلان عن ترشحه للرئاسة، دعم والدي - وهو مهاجر باكستاني- "ترامب"، بعد قدرٍ كبير من التفكير العقلاني. ربما يكون تفسير هذا التأثير الساحر لـ"ترامب" في أبي، ثم خيبة الأمل والارتباك، وأخيراً الإرهاق الذي ألم به جراءه، هو ذلك الإدمان الذي اعتاده والدي على كل ما يمثله "ترامب"، ربما تكون كل هذه الأمور مهمة، لكنني لا أعرف ما إذا كان بإمكاني تحَمُّل كتابتها، فأنا أحب والدي، وأعتقد أنه رجل طيب. يكفي القول بأننا كُنا على خلاف، وكان والدي على استعداد للتذرُّع بأي مبرر أو اللجوء إلى أيّة ألاعيب عقلية للدفاع عن سلوك "دونالد ترامب". وما أن اتضح أنه سيفوز، اتصلت بوالدي، وسألته:
"هل صوتت له؟"
قال: **"اللعنة، أنا لا أتحدث عن هذا"**. وأغلق الاتصال في وجهي.

لم يُخبرني مطلقاً ما إذا كان قد صوّت لـ"ترامب" أم لا؟! بيد أن الخجل قد تبدّا في صوته. وتساءلت عمّا كان يظن أبي عندما صوّت للرجل. ما الذي رآه في "ترامب" حتى يُفتن به لهذه الدرجة؟ فنظرتُه لنفسه أكبر وأعظم كثيراً! فـ"ترامب" رجل لا يكترث للعواقب، وهو شخص أحادي التفكير ونرجسي. ربما أمل في مكاسب هائلة لذاته الأمريكية إذا ما تخلى عن هويته الباكستانية؟ في أمريكا، يُمكن أن تحظى بأي شيء، أليس كذلك؟ فإذا كان بإمكان أحمق، مثل "ترامب" أن يتولى منصب الرئاسة، فليس الأمر بمفازةٍ منك! حتى ولو لم تكن ترغب في ذلك حقاً؟ إنما تعرف فقط أنك تستطيع.

صعود "ترامب" إلى الرئاسة هو استكمال لصعود مذهب "البيزنس" التجاري المخطط له منذ زمنٍ طويل. ليس انهيار الديمقراطية، ولكن الحفاظ على الثروة باعتبارها مسعىً مقدساً، وهو فيما يبدو آخر ما تبقى من الشغف الأمريكي بالثراء وسطوة النفوذ.

2- حول بن لادن

بعد مرور ما يقرب من عشر سنوات من أحداث الحادي عشر من سبتمبر، كتبتُ مسرحيةً يعترف فيها مُسلم أمريكي المولد بأنه عندما سقطت الأبراج، انتابه شعورٌ غير متوقع بالفخر، ما جعله يدرك أنه على الرغم من التزامه بكونه أميركياً، فهو لا يزال يتعرّف بطريقة ما على استيعابه لفكرة العدو، وكيف يرى العدو! ولاحقاً، تشير الشخصية المسلمة الأخرى الوحيدة إلى الهجمات باعتبارها شيئاً تستحقه أمريكا، وربما لم تكن تلك الشخصية إلا واحدة من بين كثيرين. بعد أن فازت المسرحية بجائزة بوليتزر الشهيرة "Pulitzer"، وتم عرضُها في جميع أنحاء العالم، كان أكثر ما أُسأل عنه: هل المسرحية سيرة ذاتية؟ هل تُشاطر الشخصيات الآراء نفسها؟

حسناً، من أين نبدأ؟ كيف نتحدث عن وريد الألم والمرارة الذي انفجر داخل أمي عندما قُتل الرجل الذي تحبه؟ ليس والدي، بل أحد أصدقائه المقربين من كلية الطب؛ "لطيف".

كانت والدتي مرتبطةً بباكستان كما لم يكن والدي على الإطلاق. لقد نشأت بالقرب من الحدود التي تفصلها عن

الهند، ورأت رأي العين الفصل الدموي بين المسلمين والهندوس والسيخ. بث فيها العيشُ عبر تلك الأحداث خوفاً على حياتها، ذلك الخوف الذي ظل يحمله جسدُها حتى وهي جالسة في مطبخها الأمريكي حينما كانت تقطن في ضواحي المدن. بعد خمسة وعشرين عاماً من الصدمة. كنت أعرف أنها امرأة هادئة ومتوترة، ولكن أبسط الأشياء كانت تجعل منها امرأة لطيفة، فتبدو وكأنها امرأة مختلفة تماماً؛ موسيقى البولكا، وُرود الشاي، وأكواب زبدة الفول السوداني من ريس "Reese" و"لطيف"!

عندما قابلت والدتي "لطيفاً"، كان في السنة الثالثة من كلية الطب، وكان خاطباً بالفعل. كان رجلاً ضخماً - أطول من والدي بنصف قدم، وأثقل بمائة رطل، لكنه رقيق وطيب. عندما انتقل هو وأبي إلى أمريكا، انغمسَ أبي على الفور في أسلوب الحياة الأمريكي. لكن "لطيف" لم يشأ أن ينسى أصوله. مسلم متدين لم تفُته صلاة ولا يوم صيام. كان يُحوّل مكتبه إلى عيادة مجانية كل صباح في أيام الآحاد. كان من الواضح أنه المكان الذي ينتمي إليه، ألا وهو خدمة أولئك الذين يحتاجونه.

وكجزء من حربهم الممتدة بالوكالة مع أمريكا، انتقل السوفييت إلى أفغانستان في ثمانينيات القرن الماضي، في معركة سرعان ما وصلت باكستان. غيّرت أخبارُ الحرب "لطيفاً"، حين علم أن إخوانه المسلمين يُذبحون على يد إمبراطورية شريرة وهو يقبع هناك، يربي الأطفال الذين يتذمرون من المارشميلو في الشوفان. أصبح أكثر صرامةً وجديةً. رأينا المجاهدين المقاتلين في أفغانستان كمقاتلين نُبلاء يقاتلون في سبيل الحرية، محاربين مقدسين يرحبون بالموت من أجل قيمة أسمى من أنفسهم.

لم يعد إرسالُ الأموال كافياً بالنسبة إلى "لطيف"، كان بحاجة إلى التواجد هناك للمساعدة. لذلك عاد برفقة عائلته إلى باكستان. في البداية، كان الأمريكيون على استعداد للعمل معه، وإنشاء عيادة تعالج المقاتلين الجرحى، وتدريب المسعفين الميدانيين، ومساعدة الفقراء. كان يفعل كل ما في وسعه، باستثناء حمل السلاح والتوجه إلى المعركة.

في عام 1998، تلقى والدي نبأ اغتيال "لطيف" خلال غارة على القاعدة، لم يكن الأمر أكثر من رصاصة في الرأس. وعلى شبكة "سي إن إن"، جاء الخبر كالتالي:
"جحافل فقيرة ويائسة وجاهلة تتبع الإرهابي أسامة بن لادن تهاجم قاعدة وتقتل حتى من يعالجون المرضى". لم يذكر أيٌّ من التقارير أن "لطيفاً" كان مواطناً أمريكياً.
ولم تعد أمي بعد ذلك إلى سابق عهدها أبداً.

3- بأسماء النبي

العام 2008 في ضواحي "أبوت آباد" المدينة الواقعة في شمال باكستان حيث سيتم خلال ثلاث سنوات العثور على "أسامة بن لادن" وقتله. لم يكن اختباؤه هناك مفاجئاً – "أبوت آباد" مدينة عسكرية تعج بالجنود وطلاب الكليات والمراكز العسكرية والضباط. تزوجت عمتي "روكسانا" عقيداً اسمه "نسيم"، وهو رجل قوي البنية معتد بنفسه. لقد أمضت جلّ حياتها في العيش هناك، وهي الآن مريضة بسرطان الدم الذي سيودي بحياتها في النهاية. أتيت أنا وأبي لزيارتها.

بعدما شهدنا موجة جنون الاضطهاد (البارانويا) التي ضربت البلاد بعد 11 سبتمبر، عقدتُ العزم على أن ألتزم الهدوء، وأن أنصت قبل أن أتحدث، بيد أن أبي لم يقطع مثل هذا الوعد. كان العشاء حدثاً متوتراً. قال "نسيم" وهو يقضم تفاحة بينما يتفرّس في تعابير وإيماءات أبي:
"كان الحادي عشر من سبتمبر عملاً حربياً، كان عبقريةً تكتيكية، لا أقول إنه كان عملاً جيداً، لكنه غيَّر تاريخ وقرع الطبول لخوض غمار الحرب".

قال والدي بلهجة حادة:
"أيها العبقري نسيم بهاي؟ انظر إلى الفوضى التي بدأتها هذه الحرب".
"آثار الحرب شخصية دائماً، لكن الحرب نفسها أبعد ما تكون عن ذلك. 'الحرب ما هي إلا سياسة ولكن بوسائل

أخرى‘، لن ترى العالم كما ترغب ما لم تكن على استعداد للقتال من أجل ذلك. لقد فعل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم هذا، أفضل من أي شخص آخر. لقد كان أفضل الرجال، لكنه كان أيضاً رجلاً عسكرياً عظيماً“.

لم أنطق بكلمة. كنت أعلم أن الرسول وأتباعه الأوائل هم أكثر البشر حكمة وشجاعة، بالنسبة له وبالنسبة لكل المسلمين، وهم أيضاً النموذج الأمثل للوجود. قد تكون المبادئ التي روج لها ”نسيم“ مباديء محورية لدى ”داعش“؛ المشروع الاجتماعي والعسكري الذي راح يزدهر في سوريا والعراق، وهو انعكاس ملتوٍ وشيطاني للمجتمع الإسلامي الأول، ولا يعبر عن الإسلام في شيء.

في صباح اليوم التالي، ودّعنا الموجودين، وخرجنا إلى السيارة التي استأجرها ”نسيم“ لإعادتنا إلى المطار، وهي سيارة مرسيدس زرقاء يقودها شاب أسود اسمه ”زيد“. من الواضح أنه كان رجلاً متديناً، تُطوّق شعره بإحكام كوفية بيضاء، وكل حركاته تصحبها ”بسم الله الرحمن الرحيم“ بصوت هادئ. قالها عند فتح صندوق السيارة، وعند وضع حقائبنا بالداخل، وعند فتح أبواب السيارة، وعند إدارة مفتاح التشغيل. أدار أبي عينيه.

تحركت السيارة في صمت حتى تلقى ”زيد“ مكالمة، تعلق الأمر بابنه الذي كان يحترق من الحمى. كان ”زيد“ وزوجته يبحثان عن طبيب لزيارته، لكنهما لم يجدا. وبسماع هذا النبأ، أصرَّ والدي على المساعدة، فانعطفنا إلى مدينة ”حسن عبدل“.

لا يسعني وصفها بغير أنها مدينة أكواخ. انتشرت في أرجاء المكان هياكل متداعية مبنية من قماش متسخ وطوب مكسور وألواح معدنية صدئة. كانت الكلاب ترعى والأطفال يلعبون في أكوام من القمامة والحطام. اندفعت عجلاتُ السيارة عبر قناة تحوي سائلاً لزجاً أسود اللون من الواضح أنه نفايات بشرية - وأخيراً وصلنا إلى منزل ”زيد“.
وبينما كان والدي يميل لتفقد الطفل، وقفت بجانبه. قدم لي ”زيد“ سيجارة، وسألني:
”هل حقاً والدك طبيب مشهور في أمريكا؟“
فكانت إجابتي: نعم.
قال: ”ما شاء الله، أسامة دائماً محظوظ“.

عند رؤيته لدهشتي، ضحك ”زيد“ وأوضح أنه لم يقصد ”أسامة بن لادن“، بل ابنه، الذي سُمي أيضاً على اسم حفيد النبي ”أسامة بن زيد“. الذي سأل النبي أن ينضمَّ إليه في المعركة حين كان طفلاً. وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره، سمح له الرسول بذلك، وأصبح مقاتلاً عظيماً - أصغر قائد في جيشه.

سألته بعد صياغة السؤال بعناية قدر المستطاع:
”هل تأمل أن يكبر ابنك أسامة ليصبح مقاتلاً عظيماً أيضاً؟“
ابتسم ”زيد“ قائلاً:
”إن استطاع أن يُضحي بحياته ليصبح العالم أفضل، وأن يرقى إلى مستوى اسمه، فما النعمة الأعظم التي يمكن أن يتمتع بها الأب إذن؟“

رحلتي إلى سكرانتون – بنسلفانيا
4– بلاد الله

في عام 2010، تعطلت سيارتي على الطريق السريع في أمريكا، حيث أطلق العادمُ سحباً من الدخان الأبيض. جاء جندي من ولاية بنسلفانيا، بنبرة مبتهجة متأنية تُظهر أنه لم يقصد سوى المساعدة وأوقفني على جانب الطريق.

وبينما كنّا ننتظر قَطْر الشاحنة ونقلها إلى ورشة الإصلاح، سألني من أي بلد أُخذت اسمي. كنت أعرف أنه يسألني في الحقيقة من أين أتيت. وفي حين أنني من أصل باكستاني، فإن اسمي في الواقع مصري. وغالباً ما يكون ذكر

أيٍّ من هذين البلدين في أي محادثة بمثابة دافع يقود إلى مزيد من الأسئلة الأكثر تحريّا، والتي يشوبها نوع من انعدام الثقة المطرد الذي أحرص على تجنبه، لا سيما بعد 11 سبتمبر. أخبرته أن الاسم هندي وأنني من مدينة "ميلووكي" في ولاية "ويسكنسن".

كان ذلك اليوم هو الأحد. أخبرني سائق الشاحنة التي قطرت سيارتي أنه عليَّ الانتظار حتى مساء يوم الاثنين إلى أن يأتي شخص ما ليفحص سيارتي، لذلك أوصلني إلى فندق. تبدّت مخاوفي في أحلامي، فور الاستيقاظ حاولت إفراغها، وهي ممارسة للكتابة كنت قد درستها في الكلية. جاء الوحي كالتالي:
كان عمي "شُعفاط" يتزوج ثانيةً، من امرأة مواظبة على ارتياد الكنيسة في ولاية "فيرجينيا"، وتدعى "كريستين". دارت شائعات بأنه كان يذهب معها أيام الآحاد وأنه يفكر في التحول إلى المسيحية. في وقت لاحق غير اسمه رسمياً إلى "لوك". ولم تكن مفاجأة.

كان في حانة على مقربة من قاعدة بحرية، وربما، كرجل عسكري، شعر براحة أكبر ممّا كان يجب أن يسمح لنفسه. أشك أنه تناول كأساً واحدة فقط من البيرة. أخذ يوضح لزملائه مرتادي الحانة أنه بقدر كرهنا لطالبان، يجدر بنا أن نتذكر أنهم كانوا في صفنا ذات يوم، وأنهم لم يكونوا دائماً الوحوش التي صنعناها.

لم يكن مفاجئاً أنه عندما غادر الحانة، قابله ضابطان ببلاغ يتهمه بتشكيل تهديدات لأمريكا. ألقوا به على الأرض، وداسوا على وجهه، ولفوا ذراعه بعنف خلف ظهره، ممّا اضطره لاحقاً إلى استبدال مفصله. ثم كُبِّل وأُلقي في زنزانة مع أحد قدامى المحاربين المختلين عقلياً، الذي بدأ في توبيخه وإهانته عندما سمع الضباط يطلقون عليه طالباني أمريكي. وليس من المستغرب أنه بينما كان عمي يجثم مرتعداً تحت الركلات واللكمات، رأى الضباط يفتحون علبة بيرة، ويجلسون للمشاهدة.

كسر المُحاربُ المختل اثنين من ضلوعه، ونزل به إلى المستشفى. على الأرجح اتُهم "شعفاط" بالسُكْر وممارسة السلوك غير المنضبط، ومحاولة الاعتداء على ضابط شرطة، ولكن عندما اتضح أنه لن يتقدم بشكوى، تم إسقاط التهم.

ولا عجب في أن "لوك" شعر أنه أكثر أماناً، أخيراً سيجد "لوك" انتماءً.

اتصلت بي ورشة الإصلاح. تكلفت الإصلاحات 900 دولار. لم أكن أمتلك المبلغ ولكن كان معي بطاقة ائتمان بها ما يكفي لتغطية المبلغ. ولمدة خمس سنوات، كنت أحوّل الأرصدة وأقدّم على بطاقات ائتمان جديدة. كنت مثقلاً بديون بلغت حوالي 50000 دولار في تلك المرحلة.

عندما وصلت في وقت لاحق بعد ظهر ذلك اليوم، أخبرني الميكانيكي أنني مدين لهم بمبلغ 2500 دولار. كان الأمر متعلقاً باستبدال المُحَول ومجموعة التشغيل.

خفق قلبي في صدري. وأردفت قائلاً:
"لا أملك هذه النقود، فضلاً عن أنني لم أطلب محولاً جديداً، فمن فضلك رده إلي".
لم ينزعج الميكانيكي، وقال إنه ليس بوسعه أن يفعل ذلك. قلت إنه أجرى الإصلاح من دون موافقتي، وربما ينبغي علينا الاتصال بالسلطات لحل هذا الأمر. فقال:
"الشرطة؟ رائع! رقم الشرطة مسجل على هاتفي ومخصص بميزة الاتصال السريع، فزوجتي تعمل هناك. لقد قابلت ابن أخي منذ يوم أو يومين، شرطي الولاية، وهو يقول إنك مصري. هذا مضحك".

هل كان يكذب؟ ماذا يهم؟ كانت سيارتي بحوزة الرجل، وكنتُ مُسلماً أحمل اسماً مضحكاً. اتصلتُ بالمصرف الذي أتعامل معه، وطلبت زيادة حد الائتمان الخاص بي -أكثر من 15000 دولار- الرصيد المستحق على بطاقتي الآن عليه فائدة بنسبة 22% كان بإمكاني أن أجد مرآباً محلياً وأدخر المال. عندما انتهت المرأة على الهاتف

من حديثها الآلي، شكرتها بحماس وأغلقت الخط. قدت سيارتي إلى المنزل في صمت، العجلات تتدحرج على الأسفلت، وأسمع صفير الريح عبر النافذة المتصدعة. وفي سريرتي عقدت العزم على الكف عن التظاهر بأنني ما زلت أشعر أنني أمريكي.

5- "رياض" يتاجر في الديون

غادرت بلدة "سكرانتون" حاملاً ديوناً ستستغرق مني عامين لسدادها. لكن القرار الذي اتخذته هناك كان يقودني إلى سلسلة من الأعمال هي ثمرة ذاك الصراع الأمريكي الذي يضطرم في داخلي. أثمرت هذه الأعمال فيما بعد عن نجاحي ككاتب وقادتني كذلك إلى "رياض رند" (Riaz Rind).

كان "رياض" ثرياً ثراءً فاحشاً، فهو مؤسس صندوق تحوّط في وول ستريت يُدعى "أفاسينا" وصندوق "رياض رند الخيري"، وهي منظمة كانت تسعى إلى "تغيير لغة الحوار وتحسين الحياة". كان الحوار الذي أراد تغييره يدور حول الإسلام، والحياة التي أراد تحسينها كانت حياة المسلمين. لم يكن طموح "رياض" لينتهي عند تغيير سياسات أمريكا، وإنما امتد ليشمل تغيير الأشخاص الذين حكموها أيضاً. كان يرى أن هذه هي الطريقة الوحيدة التي تضمن الترحيب بالمسلمين حقاً.

تقابلنا في مسرحية حضرتُها في نيويورك. تحدث عن صراع الشخصيات المسلمة والفكر الإسلامي فيها، وعمل في شركة المحاماة نفسها التي كانت الشخصية الرئيسة تعمل فيها. أدخلني في دائرته المقربة، وعرّفني على الأشخاص الأقوياء وأشركني في أحداث فاخرة ومترفة. على الرغم من ثرائه، كان "رياض" رجلاً براجماتياً. أي صداقات أو علاقات كانت تحتل المرتبة الثانية بعد طموحه المتعلق ببناء وطن أمريكي أفضل للمسلمين. وأكثر ما أخبرني به عن نفسه كان بعد وفاة والدتي، التي تركت لي ميراثاً يقترب من 300000 دولار. جئت إليه سعياً للمشورة، وحينها حكى لي قصة.

عندما كان صغيراً، حاول والده إنشاء مسجد، أولاً في "ويلكس-بيرا" في ولاية "بنسلفانيا"، ثم في "سكرانتون" لاحقاً. لم يكن والده رجلاً متديناً، لكن في الفترة التي قضاها في أمريكا، تعلم أن يُعوِّض وطنه. اشترك هو وصديقه وحصلوا على عقد إيجار لواجهة محل فارغة.

لم يمر شهران وافتُتح المسجد الجديد، ولكن كانت هناك مشكلات منذ البداية. الكثير من المضايقات التي تعرض لها المسجد دون دعم من القانون. حاولت شقيقة "رياض" الصغرى الانتحار، وفي وحدة العناية المركزة، طلب رئيس الشرطة معرفة كم مرة يضرب فيها الأب أطفاله. لم يتحمل والد "رياض" هذا الوضع، وأغلق المسجد وانتقل إلى "سكرانتون". بدأ المصنع الذي عمل فيه والد "رياض" في تسريح العمال، وبينما كانت تضربه أمواج اليأس المتلاطمة، وجد حلاً لزيادة الأرباح التي أفقدت خمسة وثمانين شخصاً وظائفهم. وعندما حاول إنشاء مسجد جديد، منعه كل من كرهوه من نيل تصريح للقيام بذلك. في عام 1983 تم إغلاق المصنع، وفقد والد "رياض" وظيفته في النهاية. حاولت شقيقة "رياض" الانتحار ثانية، وللأسف نجحت هذه المرة. انهار الأب ولم يتعافَ تماماً على الإطلاق. وأعتقد أن "رياض" كان في الحالة النفسية ذاتها. قال "رياض":
"يمكنك أن تفهم سبب رغبتي في أن أحيا حياة لا تخضع مطلقاً لرحمة الآخرين".
وقد فهمت.

عرض على استثمار أموال والدتي في إحدى شركاته الجديدة، ووافقت. حققت الشركة أرباحاً هائلة من خلال شراء الديون في سوق الإسكان. في غضون عامين، قمت بالبيع، الآن أصبحت مليونيراً. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحدّ. استمرت أرباح الشركة في الارتفاع، على حساب حفنة من البلديات الصغيرة، الذين استثمروا دون معرفة مدى خطورة الأصول التي كانوا يستثمرون فيها. كان الأمر مدمراً لتلك المدن. تعرفت على اثنتين – "ويلكس-بيرا" في "بنسلفانيا"، و"سكرانتون". وعلمت لاحقاً أن كل هذه البلدات مَنَعت بناء المساجد.

الوباء الأمريكي

6- عن الحب والموت

كان الورم قد التحم بالعمود الفقري لدى أمي حينما اكتشفناه. لم يستطع أيُّ كمٍّ من الجراحات أو العلاج الكيميائي إزالته. مرت بهذا الوضع ثلاث مرات خلال ثلاثين عاماً. ومن ثم كانت مصممة على ألا تعاود الكرة، ما يعني الاستسلام للموت بسبب المرض. في النهاية، كانت تعتمد على مجموعة من المُسكّنات، التي إذا لم يتم استخدامها بطريقة صحيحة تماماً، كانت موجات الألم الهائلة تمزق جسدها. غير أن الألم لم يكن ليمنعها من النوم في معظم الأوقات.

كنت أجلس إلى جوارها وأتساءل عما إذا كان هناك شيء يطاردها يتجاوز عذاب جسدها، بخلاف الخوف والألم. كنت أتساءل عن الألغاز المتعلقة بحياتها التي لا تزال مُبهمة. علمت أنه على الأرجح لا جدوى من ذلك، لكنني ظللت أتساءل على أيّةِ حال. وهكذا توصلت إلى أنني لم أشعر أبداً أنها كانت تُحبني حقاً. لم أكن أعرف أبداً من الذي يُحبني، ولم أثق مطلقاً في أنها تعرف من تحبه بداخلي. لقد كانت تهوى الكتب. هل أحببتُها كوسيلة للتواصل معها، وهل قمت بتأليفها كذلك سعياً لاهتمام لم يسعني فهمه مطلقاً؟

كانت إحدى آخر محادثاتي المقبولة معها تتعلق بالوطن؛ عن باكستان. قالت:
"أنا آسفة جداً يا بني، كنتَ دائماً سعيداً جداً بالعودة للوطن. لم أرك بهذه السعادة مطلقاً هنا. لم أحب هذه البلاد ولا هذا المكان مطلقاً".

لم تتجلَّ العواطف على صفحة وجهها هكذا من قبل. كان جمالها بادياً ولكنه كان تعيساً.
"لماذا تعتذرين يا أمي؟ كنتُ سعيداً لسعادتك. وكان من الجيد أن أكون مع العائلة".
"آسفة لأننا أتينا بكَ إلى هنا".
"أمي، إني أعيش هنا حياة طيبة. أنا سعيد".
قطبت جبينها وأردفت قائلة:
"لا أعتقد ذلك".
"إنني أفعل ما يحلو لي، فأنا كاتب".
قالت:
"وهو ما يجعلني سعيدة، أنت واحد منهم الآن، فلتكتب عنهم، وليس عنّا". وسمعت نصيحتها ولن أتوقف!

7- نهاية الرحلة الأمريكية

في شهر أكتوبر 2012، رأى والدي مريضةً تُدعى "كريستين لانجفور"د، وهي امرأة شابة حامل في شهورها الأولى تعاني من مرضٍ في القلب كان منتشراً في عائلتها. تم تشخيص حالتها عندما كانت طفلة، وكانت تأخذ دواءً معروفاً لتنظيم ضربات قلبها، لسنوات طوال. ولكن عندما حملت، قرأت مقالاً حذَّر من المخاطر المحتملة لأخذ هذا الدواء على الجنين. اتصلت بطبيبها، وتمت إحالتها إلى والدي، ثم الاختصاصي الرائد في الولاية. وقد نصحها بالتوقف عن تناول الدواء لحين إجراء الفحوصات اللازمة. ومع ذلك، وبصفته متخصصاً، لم يكن بوسعه سوى إعطائها المعلومات؛ إذ يجب أن يكون القرار بينها وبين طبيب القلب الخاص بها.

ضغطت "كريستين" على أبي للحصول على إجابة أكثر تحديداً، فقالت:
"إذا كان لديك ابنة لها تاريخي المرضي، فبم تنصحها؟"
أتخيل والدي على وشك المغادرة بالفعل، ثم يتوقف ليفكر. وأخيراً، قال:
"سأنصحها أن تتوقف عن تناول دوائها".
أخذت "كريستين" بنصيحته. ماتت بعد أسبوعين، وذهب معها طفلُها الذي لم يولد بعد.

وكان أول ما سمعت عن هذا الأمر في الصباح الذي أخرجتُ والدي فيه من السجن. اتصل "بنجي"، صديق طفولتي ونائب رئيس شرطة البلدة التي نشأت فيها وكان والدي لا يزال يعيش فيها، وأخبرني أن أبي كان مخموراً، ويثير جلبة في الكازينو الجديد في المدينة. أحضره "بنجي"، حفاظاً على سلامته أكثر من أي شيء آخر. منذ وفاة والدتي، كان أبي يزداد سوءاً. كان "بنجي" يأمل في أن يكون ما حدث بمثابة تحذير.

في صباح اليوم التالي لحمله، أخبرني والدي بكل شيء. قاضته عائلة "كريستين" بدعوى ارتكاب خطأ طبي، وكانت الشركة التي اشترت مجموعته الطبية تدعمه في المحكمة. بقيتُ لأراقبه، لكن ليلة بعد ليلة كان يتسلل وينتهي به المطاف في أحد الكازينوهات، مخموراً يهذي. وكنت دائماً أعيده للبيت.

كنا نتجنب أنا وأبي الحديث عن "ترامب" خلال عامه الأول كرئيس. ما زلت أتذكر الخلاف الذي نشأ بيننا أثناء الانتخابات، ولم أرغب في معاودة الأمر ثانيةً. بيد أنني شعرت أننا سنعاود الحديث عن الأمر. عندما أقال "ترامب" مدير مكتب التحقيقات الفيدرالي "جيمس كومي"، لمّا رفض إدانة العنصريين البيض الذين احتشدوا في "شارلوتسفيل"، عندما وعد ببناء "جدار جميل كبير ورائع". وشيئاً فشيئاً اعترف بأن "ترامب" الذي كان يعرفه كل تلك السنوات قد تغيّر، ربما يكون ثقل المسؤولية قد أفسد شخصيته.

ولكن لم يحدث ذلك إلا في أحد الأيام في محطة وقود، عندما هاجَمنا رجلٌ أشقر بمسدس، اعترف أبي أخيراً بمشاعره. فبعد أن أفلت الزمام صاح قائلاً:
"لقد كان ترامب خطأً فادحاً".

في آخر يوم من شهر أكتوبر، بينما كان أبي يحضر جلسة بعد الظهر من أسبوعه الثاني في المحكمة، اصطدمت شاحنة صغيرة بمجموعة من المارة، ما أسفر عن مقتل ثمانية أشخاص وإصابة 11 آخرين. كان الجاني مهاجراً مسلماً من "أوزبكستان". قررت الشركة التي كانت تدعم قضية أبي التسوية مع عائلة "كريستين"، ما أدى فعلياً إلى حرمانه من ممارسة المهنة. وكان الوقت قد حان لتقاعد والدي.

اتصل بي وسألني عما إذا كان بإمكانه استخدام بطاقتي لحجز رحلة طيران إلى باكستان مع صديقه الذي كان ذاهباً لزيارة والدته المريضة. كان أبي قد بلغ الحد الأقصى من رصيد بطاقاته الخاصة، فسألته ما إذا كان يعاني من مشكلة مالية؟ فجاء رده: "إنها قصة طويلة".

في اليوم التالي، اتصل بي ثانية وسألني ما إذا كان بوسعي تناول العشاء بصحبته؟ لقد حجز غرفة في فندق بلازا في نيويورك، وبطريقة ما سجل حجزاً آخر في "إليفن ماديسون بارك". أجبته موافقاً. أردت أن أعرف ما يجري. لم يكن وحده. كانت تجلس بجانبه امرأة ترتدي ملابس حمراء اللون - المرأة التي أقام علاقة معها وأنجبَ منها "كارولين". استشطت غضباً، واندفعت خارجاً من الفندق، ووجدت نفسي أبكي على مقعد في الحديقة.

كانت دموعي تنساب من يُنبوع ألم انفجر في صدري، من قلبي الذي طالما عهدته كسيراً. ألم يقدم لي هو وأمي كل ما في وسعهما؟ تُرى، لِمَ لَمْ يكن كافياً؟ شعرت باهتزاز هاتفي، أخرجته لأجد مكالمتين فائتتين من أبي. كان علَّي أن أعود إلى الداخل. لم أستطع التظاهر بعدم حاجتي إليه.

أثناء عودتي، رأيته بالخارج يساعد "كارولين" في ركوب سيارة أجرة. فصرخت هاتفاً:
"أبي!"
عبرت الشارع. لم يكن ليلتفت إلى نظرتي الثابتة. قلت وأنا أبكي ثانيةً:
"آسف".
لم أكن أعرف لم أعتذر، لكن كان علي أن أفعل. قال بينما كان يهز رأسَه:
"لا.. لا".
جذبته نحوي، فقاوم معانقتي.

”لا، أيها السفيه، لا“.
لكنني ضغطت عليه وأحكمت قبضتي قدر المستطاع حتى توقف عن المقاومة. عندما بادر بالحديث، أدركت أنه كان يبكي أيضاً.
أجهش بالبكاء على كتفي قائلاً:
”لقد فقدتُ كل شيء، كل شيء“.
لم أكن بحاجة إلى تفسير. لم يكن هناك ما يهم سوى عناقنا. لو كان بوسعي فقط أن أقترب منه حدّ الالتحام ويطول عناقنا، فربما يُشفى ما انكسر بيننا. لكن قلبي لن يُشفى أبداً.

كنت أتساءل عمّا إذا كان أبي يعرف أنه لن يعود من رحلته إلى باكستان. لقد خلّف وراءه أكواماً من الالتزامات والديون والقروض غير المُسّدَدة. جميع أصوله وحساباته ذهبت سدى بسبب آفة القمار وكانت تُشارف على المليوني دولار. القمار! نعم؛ إنها اللعبة التي أتقنها ”ترامب“ خير إتقان. كان يفكر في الهروب لبعض الوقت، وأوكل محاميه بتولي الأمر وفق الضرورة. وبحلول شهر مايو من ذلك العام، بِيع المنزلُ الذي نشأتُ فيه وأُعيد طلاؤه، ولم يخلف وراءه سوى صور عائلتنا. كانت مزايا الضمان الاجتماعي الخاصة به كافيةً لتمنحه حياةً مستقرة، وإن كانت متواضعة، في منزله الموروث في ”باهاوالبور“.

كنتُ أعلم أننا نفتقد بعضنا بعضاً، لكن يمكنني أيضاً القول إنه كان بحال أفضل ممّا كان عليه منذ سنوات. لم يكن يشرب بالقدر نفسه، وفي بلد إسلامي تلاشت فرصتُه في المقامرة. باكستان، الدولة التي ظل يمقتها طوال حياته الأمريكية، صارت موطنه مرة أخرى.

ولم ينادي: أمريكا! أين أنت يا أمريكا؟ لقد وجد صعوبة في تصديق أنه قضى حياته هناك، فأعطى أكثر بكثير مما أخذ. لكن ”ترامب“ وأمثاله لم يعترفوا بعطائه، سواء عالجهم من وجع القلب أو من وجع الروح. كان يريد دائماً أن يكون أمريكياً، وأدرك أنه كان يمثل دوره في الحياة طوال الوقت، وها هو سئم التمثيل، أخيراً.

”عشت هناك حياة طيبة، وأمضيت سنوات جيدة. كنتَ أنت ثمرة الحياة هناك! أنا ممتن لأمريكا، لكني سعيد بالعودة إلى باكستان، أيها السفيه. أنا سعيد بالعودة إلى الوطن“. وكانت هذه آخر رسائله! احتفظت بها لأقرأها كل يوم.

المؤلف :

إياد أخطر

روائي وكاتب مسرحي أمريكي المولد من أصل باكستاني. حصل في عام 2013 على جائزة ”بوليتزر“ للدراما، وجائزة أدبية من الأكاديمية الأمريكية للفنون والآداب. تم نشر أعماله وتمثيلها بأكثر من عشرين لغة.

الكتـــاب

Title:	**Homeland Elegies: A Novel**
Authors:	Ayad Akhtar
Publisher:	Little Brown & CO.- September 2020
Pages:	369
ISBN:	978-0316496421